**التفكيكية**

**الأهداف**

* تعريف الطالب بالتفكيكية وبسياقها التاريخي
* بيان العلاقة بين البنيوية والتفكيكية
* تعريف الطالب بمفهوم الاختلاف

**الأسئلة والإشكالية**

* ما هو مفهوم التفكيكية؟
* ما هي العلاقة بين التفكيكية والبنيوية؟
* ماهو مفهوم الاختلاف؟

**السياق الثقافي لنشأة التفكيكية**

لم يكن خافيا أن البنيوية كانت تبحث عن رؤيا كلية وشاملة تستوعب الموضوع استيعابا كاملا وذلك بتصيد النص ووضعه في شبكة العلاقات والبنى الكامنة باعتباره كيانا مستقلا ومجالا مغلقا لا ينضح إلا بما فيه ، وهي مقاربة تقوم على أساس من التبصرات المنهجية والعلمية المفرغة في قالب من النظام المنطقي والموضوعي الذي يطابق الموضع مع مدركات الناقد على نحو من الملائمة والاتصال يغيب فيها الحكم الشخصي ، وكل ما يشتغل خارج الموضوع ، إذ هذه الرؤيا تفصل بين الذات والموضوع على نحو ما تفعل العلوم الطبيعية ، وتلتمس شرح العمل الأدبي وفق الأسس العلمية المنضبطة على نحو من التجريد والتقشف المنهجي ، يتماشى مع منطلقات الفكر الغربي المتعاطف مع الرصانة المنهجية منذ كانط[[1]](#footnote-2).

وكان هذا المنهج ملمح النقد الغربي طيلة الستينات في تسابق محموم بين دعاته تمثل في أنصار النقد الجديد الفرنسي والأمريكي الذي أثبت في غمرة الانغماس التطبيقي لإجراء البنية على كل ما يقف أمامها من موضوعات الأزياء والموسيقى والفن والأدب والثقافة...وما رافق ذلك من حماسة شديدة النبرة تتصدى لكل الأصوات المعارضة وتتغاضى بشكل عمدي عما يمكن أن يقف في وجه البنية وينال من سحرها الأخاذ ، لكن ذلك لم يدم طويلا في ظل تعاظم المثالب التي انطوت عليها كثرة الإجراءات وامتعاض البنيويين أنفسهم من حالة التعنت التي هي أشبه بالتعصب الديني[[2]](#footnote-3) ، لأقوال البنية ومنطلقاتها الجاهزة بما يشبه حجم الملل من التكرار والترديد الأعمى لمقولات النظام والتطابق والرصانة العلمية وتوافق الفكر مع نفسه ، والهروب المستمر من قلق الأسئلة التي تتجاوز البنية في عجزها خاصة على فهم لغة الشعر وإدراك عمقها الميتافيزيقي والاستعاري، التي تحاول البنيوية إخضاعها إلى منطقها المغلق رغم ما يكتنف ذلك من تناقض وغموض أدى إلى انقلاب النقد الأمريكي على الشكلية السائدة ، والتبرؤ كليا من سجن المفاهيم وارتداد النص على نفسه في محاولة للخروج من هذا الانسداد المحتوم من أجل التطلع إلى تعميق الأفكار المناهضة لسلطان البنية وكل ما من شأنه أن يزحزح هيكل البنية ويقض بنيانها من الداخل ، وهذا ما حصل فعلا من داخل النقد الأمريكي الجديد ومن محيط المتحمسين للبنيوية الذين بدأت تتعالى أصواتهم من أجل الدفاع عن شيء من الحرية النقدية والتأمل المثمر الذي يتجاوز حدود البنية وأنظمتها الجاهزة وذلك عند ألين تيت وبلاكمور وجيفري هارتمان ووليان ويمزات..لكن هذه الأفكار لم تكن مستعدة إلى تجاوز البنيوية إلا عند اتصالها المباشر بالنقد الفرنسي ممثلا في تفكيكية جاك دريدا الذي أصبح بول ديمان الناقد الأمريكي بعد ذلك شارحها الأول[[3]](#footnote-4).

ولم يكن جاك دريدا يغرد وحيدا بل كان توجهه من صميم شواغل الفكر الفرنسي عند جاك لاكان وميشال فوكو ورولان بارت الناقد البنيوي الألمعي الذي يعد انصرافه عن البنيوية نتيجة مجهود شخصي نابع من كتاباته وقراءاته النقدية التي تمتاز بلغة جذابة ومبدعة تتحدى النص في أغلب الأحيان وتكسر العلاقة النمطية يبن لغة النص ولغة النقد ، حيث القراءة ليست استهلاكا للنص وإنما هي إعادة إنتاجه بالانحراف المعلن عن بنائه باعتباره فضاء مفتوحا لا يحمل أي معنى في ذاته ، وما مقولة (موت المؤلف) إلا تأكيد على هذا التوجه الذي يقطع الدلالة بصاحب النص لينقلها إلى النص و القارئ في عملية تفاعلية تلغي المعنى المحدد أو الأول لتفتح النص على تعددية لانهائية لا تقبل أي اختزال ، وبوصفه لعبا بالدلالات لا يمكن تسميره أو رده إلى معنى وحيد أو مركز أو جوهر، وهذا ما فعله بارت مع قصة بلزاك سرازين(1970)[[4]](#footnote-5) .

لقد كان التفكيك في فرنسا تعبيرا عن حالة من الفشل وخيبة الأمل التي أعقبها شك جارف في كل الأسس والمنطلقات التي أنتجت واقع الفكر الغربي وأحالته إلى نظام مغلق على نفسه تحكمه المركزيات، يشبه تماما واقعه الاجتماعي والسياسي الذي أثبت صموده تاريخيا، فارتد الفكر على نفسه ينقض تلك الأسس والمبادئ حيث وجد في اللغة والخطاب مسرحا للعب والعبث الذي يجعل من الكتابة في مواجهة نفسها ، إذ أصبح في الإمكان تدمير بنى اللغة تعبيرا عن حالة الاستخفاف الاجتماعي والتذمر من السلطة "..وفي الكتابة يمكن مؤقتا تمزيق وتخليع المعنى البنيوي من خلال لعب اللغة الحر ، ويمكن تخليص الذات الكاتبة /القارئة من سترة المساجين أو المجانين الموحدة وتحويلها إلى ذات منتشرة مبتهجة ونشوى."[[5]](#footnote-6) .

وهذا ما كانت تهدف إليه التفكيكية في محاولة "إيجاد شرخ بين ما يصرح به النص وما يخفيه(..) في مشروع القراءة هذا يقوم التقويض بقلب كل ما كان سائدا في الفلسفة الماورائية سواء كان ذلك هو المعنى الثابت أو الحقيقة القارة أو العلمية أو المعرفة أو الهوية أو الوعي أو الذات المتوحدة.."[[6]](#footnote-7).

وهذه القراءة المعاكسة أصبحت مجرد قلب للأدوار، أو زحزحة المركزي وإحالة الهامشي مكانه في استراتيجية متواصلة تجعل من الإبدال والقلب حرفة التفكيك التي تعيد رسم خارطة المعنى وفق الأولويات السائدة أو الثنائيات التي تطبع العقل الغربي بين : العقل/العاطفة ،الجسد/الروح ، الأنا/الآخر ، المركز/الهامش ، الحضور/الغياب ، الصوت/الكتابة...وذلك بنقض الفكر المتجه نحو الأول باعتباره مركزا ، والسماح للثاني بأن ينازع مركزية الأول ، في حركة داخلية دائمة تلغي كل الحدود المعهودة في تثبيت المعنى أو ترسيمه تحت طائلة (التمركز المنطقي) أو (الميتافيزيقا الغربية) ، وذلك في صورة دائرية يمكن تشبيهها بــ:" الخيوط المختلفة التي تتداخل مع بعضها البعض ليس كما تتداخل خيوط قطعة من القماش أثناء عملية النسيج ، ولكن مثلما تلتف الخيوط بعضها ببعض أثناء عملية الجدْل لصنع حبل أو جدلية ، ففي عملية الجدل تتبادل الخيوط مواضعها باستمرار لكي تتخذ في آخر الأمر شكل الحبل."[[7]](#footnote-8)

كما يمكن اعتبار استراتيجة التفكيك نوعا من القراءة العنيفة والمتحررة من كل الأطر النظرية التقليدية والتي لا تقف عند حد ، فما إن تنتهي حتى تبدأ وما إن تهدأ حتى تثور ، وتقوم هذه القراءة بتفجير النص من الداخل ومواجهته بذاته ، وبالتالي فإن قراءة التفكيك " هي قراءة في محنة المعنى وفضائحه ، للكشف عن نقائض العقل وعن أنقاض الواقع ، أو عن حطام المشاريع وكوارث الدعوات ، على أرض المعايشات الوجودية ، ولا يعني ذلك إحلال طرف في الثنائية محل طرف أو تغليب نقيض على آخر ، وإنما يعني أنه لا مجال للقبض على المعنى الذي هو دوما مثار الاختلاف والتعدد أو الانتهاك و الخروج أو الالتباس والتعارض ، بقدر ما يشكل إمكانا لإعادة البناء والتركيب ."[[8]](#footnote-9) .

وبالتالي فإن التفكيك رؤية تتموضع داخل العقل الغربي نفسه وتواجهه بذاته كاشفة عن زيف دعواه ، و عن حجم التوتر والحجب والتمويه الذي يمارسه النص ، وتمارسه الكتابة – وليس الصوت – باعتبارها خلقا دائما للدلالات والمعاني خارج سلطة المؤلف ، وخارج منطق الثنائيات والتقابلات ، حيث تغدوا الكتابة عملا إبداعيا يتجاوز النص الأصلي ويسمح للبعيد والخفي والهامشي بأن يظهر ويتشكل على وجه غير محدد وغير قابل للقبض، بل يضل المعنى دائما في حالة غياب وإرجاء ، فكل قراءة تنسخ أختها ، وكل معنى يفضي إلى آخر في صورة تشبه السراب ، الذي لا يقف عند حد ، مما يجعل من التفكيكية نزعة لا يمكن أن تحتويها أي رؤية منهجية، فهي استراتيجية قائمة على نقيض الفكر الفلسفي ذاته ، لكنها لا تواجهه من خارجه بل تحاول اختراقه من الداخل بقلب وإبدال أدواته على نفسه ، مما يصعب مهمة توصيف التفكيكية أو تحديد ماهيتها ، التي يعجز صاحبها عن وصفها يقول :" (ما الذي لا يكون التفكيك؟) ، التفكيك ليس تحليلا ولا نقدا..ليس التفكيك منهجا ولا يمكن تحويله إلى منهج...ليس حتى التفكيك فعلا أو عملية.."[[9]](#footnote-10) إذن لا يمكن تعريف التفكيك أو ترجمته كمصطلح لأن كل التحديدات خاضعة هي أيضا للتفكك ، ثم يخلص دريدا إلى ما لا يمكن وصفه إلا من جنس الموصوف[[10]](#footnote-11) :

* ما الذي لا يكون التفكيك ؟ كل شيء !
* ما التفكيك ؟ لا شيء !

ليست هذه العبارة من قبيل الشطح الصوفي ، وإنما تعبر بحق عن فلسفة دريدا وعن - التفكيك – الذي لا يدرك إلا بالبحث عن نقيضه ، بمفهوم السلب والنفي ، الذي ينشد الآخر، ويقارب المجهول ، ويتطلع لـ (اللاممكن) و(اللاموجود) حيث يغدو معها الآخر ، التيه ، الغياب ،النسيان ، الوهم ، الجنون...المجال المستحيل الذي لم تطرقه الفلسفة بعد ، من هنا يبدأ دريدا حيث تنتهي الميتافيزيقا والأنطولوجيا ، وحيث (الآخر) "كونه ليس من ضمن محتوى الحضور الذي يعي به العقل نفسه بعبارة أكثر دقة إنه ليس من ضمن سبل إدراك العقل لنفسه ، لمحتواه ولما يحضر فيه . إن العقل يستطيع لوهلة أولى سريعة زائلة حدس أو الحس بأن ثمة شيء ما يقف بصمت وسكون خارجه في لحظة التأمل العالي الشامل الكلي لنفسه ، ثمة شيء ما شاحب الوجود ، دون ملامح بشكل مطلق يقف خارج حضور العقل وحدود نفسه ، شيء ما يأبى التمثل والحضور ولا يخضع لإرادة التطابق مع العقل ومقولاته.."[[11]](#footnote-12)وليس أمام العقل إلا الكف المطلق عن محاولة إدراك الآخر ، والعجز عن الإدراك إدراك.

**- الاختلاف وتصدع المعنى**

لعل أهم ما يميز تفكيكية دريدا هو مصطلح الاختلاف الذي يمكن بشيء من الاختزال اعتبار التفكيك مرادفا له ، وكذلك يمكن بالمثل تفسير مختلف مصطلحات التفكيكية تحت عنوان الاختلاف ، وهو ما فعله دريدا عندما سئل عن مصطلح الاختلاف " أنا أعتقد أنها تتضح من خلال سلسلة من المفردات الأخرى التي تعمل معها .(الكتابة) ، أو(الأثر) ، أو(الزيادة) أو (الملحق) ، وهي جميعا كلمات مزدوجة القيمة ، أو ذات قيمة غير قابلة للتعيين ، (الأثر) هو ما يشير وما يمحو في الوقت نفسه ، أي ما لا يكون حاضرا أبدا ، و(الزيادة) هي ما يأتي لينضاف وما يسد نقصا."[[12]](#footnote-13).

لا يمكن على الإطلاق التماس مفاهيم دريدا بلغته التي دائما تهرب إلى الأمام وتتحدث عن نفسها بما ليست هي[[13]](#footnote-14)، وهي تعبر عن حالة المفكر المتماهي مع مذهبه[[14]](#footnote-15)، لذلك قد يكون من الأجدى تتبع هذا المصطلح من خارج التفكيك ، خاصة عند قراء دريدا ، وبذلك يمكن اعتبار الاختلاف محصلة لمعنيين متضادين لا هو بالسلب ولا هو بالإيجاب ، "فالمصطلح يجمع معا جميع معاني الاختلاف العادي ، إضافة إلى كل دلالات فعل التأجيل والإرجاء."[[15]](#footnote-16) ، أي إخلاف الهوية موعدها مع ذاتها وإحالتها إلى الآخر باستمرار[[16]](#footnote-17) ، مما يجعل من الدلالة في حالة إرجاء دائم إذ لا يمكن إثباتها أو نفيها ، لانفلاتها من التحديد وانزلاقها باستمرار الذي يعبر عن تصدع اللغة وتوتر المعنى ، وهذا ما يفضي إليه كتابة الاخـ(ت)ـلاف ، حيث الكتابة تنازع الصوت ، إذ يحمل الصوت بذور تصدعه الذي يفككه المكتوب ويحل مكانه كاشفا عن استراتيجية الاختلاف التي تفضح النص وتبعثر المعنى ، وتجعل من مفهوم الاختلاف التقليدي الذي يثبت هوية لعلامة ما في مقابل أخرى تحت مفهوم القيم الخلافية كما يراها ديسوسير ، إلى تأجيل هذا الإثبات الغير ممكن للدلالة التي تفقد قيمتها باستمرار في إطار الإحالات اللانهائية حيث اللغة مجموعة من الدوال[[17]](#footnote-18) ولم يبق سوى اللعب الحر الذي يتضمنه مفهوم التأجيل والإخلاف .

قد يكون تعريف محمد عناني – كما يصفه عبد العزيز حمودة – أكثر وضوحا حينما يرى بأن الاختلاف هو :" عدم وجود معان محددة للكلمات ، وأن أقصى ما نستطيع إدراكه هو الاختلاف فيما بينها ، وإرجاء المعنى إلى أجل غير مسمى ."[[18]](#footnote-19) ، لكن هذا التحديد وغيره وإن كان يروم التدليل على الاختلاف أو محاولة (تحديد معناه) ، إلا أنه مفارق أصلا لمضمونه ورسمه ، التي تعجز اللغة الطبيعية أو العلمية على وعي صورته ومحتواه ، مما يفسح المجال للغة أخرى أقرب إلى الشعرية والخيال ، قد لا تعني شيئا ، وهذا ما دفع عادل عبد الله إلى تعريف عجز اللغة أمام الاختلاف " كل محاولة لإدراك معنى (الاختلاف) عبر الوسيلة الوحيدة اللغة/الفكر-...- هي نفي لهذا المفهوم وطمس له ، لأن اللغة نفسها/ المعنى كله هما نتاج له –لغيابه ، ومن هنا فكل محاولة لإدراكه عبر اللغة هي مضي بالاتجاه الآخر له – ابتعاد عن المركز الذي لا وجود له – الذي صدرت عنه والذي هو (الاختلاف)."[[19]](#footnote-20).

ولذلك يستحيل الإحاطة بالاختلاف بمنطق القبض أو المفهمة ، ويبقى الحديث عن الاختلاف هو حديث عن عجز ضمني تنزاح فيه هذه اللفظة على نفسها ، لتثبت عجز اللغة أمام نفسها ، ولا يبق سوى الحديث بالاختلاف حول الاختلاف الذي لا يفضي إلى شيء ، وهذا اللاشيء هو كل شيء حسب دريدا .

1. - كريستوفر نوريس : التفكيكية (النظرية والممارسة) ، تر: صبري محمد حسن ، الرياض ، دار المريخ ، 1989 ، [↑](#footnote-ref-2)
2. - كريستوفر نوريس : التفكيكية ، . [↑](#footnote-ref-3)
3. - المرجع نفسه ، . [↑](#footnote-ref-4)
4. - تيري إيغلتون : نظرية الأدب ، تر: ثائر ديب ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، ، 1995، [↑](#footnote-ref-5)
5. - المرجع نفسه ، [↑](#footnote-ref-6)
6. - ميجان الرويلي وسعد البازعي : دليل الناقد الأدبي ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط03، 2002، [↑](#footnote-ref-7)
7. - أحمد أبو زيد : جاك دريدا فيلسوف فرنسا المشاغب ، ضمن كتاب : جاك دريدا والتفكيك ، تحرير:أحمد عبد الحليم عطية ، بيروت ، دار الفارابي ، ط01 ، 2010 ، . [↑](#footnote-ref-8)
8. - على حرب : هكذا أقرأ ما بعد التفكيك ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط01 ، 2005، [↑](#footnote-ref-9)
9. - جاك دريدا : الكتابة والاختلاف ، تر: كاظم جهاد ، تقديم ،محمد علال سي ناصر ، الدار البيضاء ، دار توبقال ، ط02 ، 2000 ، [↑](#footnote-ref-10)
10. - المرجع نفسه ، [↑](#footnote-ref-11)
11. - عادل عبد الله : التفكيكية ( إرادة الاختلاف وسلطة العقل ) ، دمشق ، دار الحصاد ، ط01 ، 2000 ، [↑](#footnote-ref-12)
12. - جاك دريدا : الكتابة والاختلاف ، [↑](#footnote-ref-13)
13. - عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك) ، الكويت ، عالم المعرفة ، إبريل 1998 ، [↑](#footnote-ref-14)
14. - عادل عبد الله : التفكيكية ، [↑](#footnote-ref-15)
15. - ميجان الرويلي وسعد البازعي : دليل الناقد الأدبي ، [↑](#footnote-ref-16)
16. - جاك دريدا : الكتابة والاختلاف ، [↑](#footnote-ref-17)
17. - عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ، [↑](#footnote-ref-18)
18. - المرجع نفسه . [↑](#footnote-ref-19)
19. - عادل عبد الله : التفكيكية ، [↑](#footnote-ref-20)